الأخلاقيات والفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ

د. عبد الباسط لكراري
أستاذ التعليم العالي مؤهل
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين– سطات
وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، جامعة الحسن الثاني ، الدار البيضاء
المملكة المغربية

الملخص:

أحاول في هذا المقال أن أقارب الفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ من خلال محورين رئيسيين: بيان الأسس الأونطولوجية المحددة لمفهوم الأخلاق ممثلة في الجمع بين الفطرة والاكتساب، والقول بالتمكين، وأن أساس الوجود الإنساني هو الإرادة الحرة المرتبطة بإعمال العقل، وربط التكليف بالجزاء. وميز الجاحظ . في هذا السياق . بين الأخلاق العملية، والأخلاق النظرية، فجعل مدار الأخلاق السياسية على التعاقد، والعدل، وأداء الأمانة، والميل إلى الاعتدال. وفي المحور الثاني المتعلق بالتوجه التداولي في الأخلاق العملية، أوضحت أن الفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ لم تبْنِ الأخلاق العملية على الخطاب الشرعي، كما نلاحظ عند الفقهاء وأهل العرفان؛ وإنما على مبادئ عقلانية تضمنت تصورا سوسيولوجيا، ونفسيا، وأنثروبولوجيا ثقافيا، لقواعد السلوك العملي، وقراءة أخلاق العصر في سياقها التاريخي والسياسي. فكانت المحصلة رصدا تداوليا عقلانيا دقيقا لأخلاقيات كثير من الصناعات والمهن المنتشرة في عصره .

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، الأخلاقيات، الفلسفة الأخلاقية، العقل، حرية الاختيار، العدل

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Résumé:

Dans cet article, j'essaierai d'aborder la philosophie morale d'al-Jāḥiẓ selon deux axes centraux : l'exposé des fondements ontologiques régissant la notion d'éthique — à savoir l'articulation de l'innéité et de l'acquisition, ainsi que le principe d'obligation — et l'idée muʿtazilite selon laquelle l'existence humaine repose d'emblée sur le libre arbitre lié à l'acte rationnel, tout en établissant subséquemment un lien de cause à effet entre l'obligation morale et la récompense. Selon cette perspective, al-Jāḥiẓ distingue l'éthique pratique de l'éthique théorique, en fondant l'éthique politique sur le contrat, la justice, l'accomplissement du devoir assigné et la tendance à la modération. Quant au volet consacré à l'approche pragmatique de la déontologie, il s'avère que la philosophie morale d'al-Jāḥiẓ ne fonde pas la praxis éthique sur le discours théologique ou théosophique — comme c'est le cas chez les juristes et les mystiques — mais sur des principes rationnels. Ceux-ci intègrent des dimensions sociologiques, psychologiques et anthropologiques à l'exercice déontologique, impactant de nombreux métiers et professions alors en usage .

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

1. ضرورة الجاحظ:

عندما احتفى معهد الشرق البيروتي في إصداره التاسع عشر بعد المائة بأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، جعله عنوانا للنزعة الإنسانية التي تنقص أزمنتنا الراهنة [1]. أليس بديع الزمان الهمذاني (398 هـ) هو القائل في المقامة الخامسة عشرة: "لكل زمان جاحظ"؟ [2]. فقد كتب الجاحظ بقلم حرٍّ عصيٍّ على معايير التجنيس، والتصنيف المنهجي، وشغلته إشكالية الكينونة في علاقتها بالإنسان، والطبيعة، والمجتمع.

منذ عصر النهضة، وارتقاءً إلى عراق العباسيين، استُعمل مفهوم "الأنْسنَة" (Humanism) محملا بدلالتين تعزى أولاهما أصلا إلى بروتاغوراس القائل "إن الإنسان مقياس كل شيء"؛ أي مركزية الإنسان في مجالات الأدب والفن والاجتماع والسياسة. والثانية تجسدها قدرة العقل الإنساني الحر على إخضاع أشياء العالم للفحص والاكتناه، وردِّ الأسئلة الأونطولوجية والطبيعية إلى مشرحة العقل، بحدوه طموح ليس إلى إعطاء معنى للعالم من حوله فحسب، بل وتغييره بعد تطويعه لمطالب الشرط الإنساني.

علم الأخلاق (Ethics) تخصص علمي يعنى بدراسة المفاهيم والأحكام الأخلاقية، ويقدم الآليات الكفيلة باشتقاق المعايير والواجبات والحدود الأخلاقية. واللافت للنظر أن "زماننا الشغوف بصنع النظريات الأخلاقية، يحيا – مع ذلك – في كنف أخلاق نظرية إشكالية في الغالب" [3]. ولعل المفارقة الأكثر إثارة هي ندرة الأبحاث والدراسات التي تروم تأسيس فلسفات أخلاقية تحتضن الأثر التراثي العقلاني العربي، وتغتذي – دونما إقصاء – من نسغ تنظيراته المتعددة والباذخة، على غرار ما فعل فلاسفة الأخلاق العرب خلال بواكير التأسيس في القرنين الثالث والرابع، مع الفلسفة الأرسطية بوجه خاص. وهنا مسوّغ العودة إلى الفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ، ليس من حيث كونها منظومة فلسفية متسقة ومتكاملة، ولكن بوصفها أيضا "جماليات وجودية"، هذا إن جاز لنا استعمال مفهوم ميشال فوكو في هذا السياق[4].

وعيا مني بمضايق القراءة التركيبية للفلسفة الأخلاقية الجاحظية نظرا لتشعب أسئلتها، وفيض مفاهيمها ومرجعياتها، فقد جعلت مقاربتي في مدخل احترازي، ومبحثين مدارهما، أولا، على **الأخلاق النظرية** ومبادئها الأونطولوجية عند الجاحظ، وثانيا، على **الأخلاق العملية** في فرعين يتصديان للأخلاق السياسية، والأخلاقيات (Déontologie).

---

[1] - Al-Jahiz : A Muslim Humanist for our time, Ed. Arnim Heinemann, John L. Meloy, Tarif Khalidi, Manfred Kropp, Orient-Institut Beirut, 119, 2009, Ergon Verlag Würzburg in Kommission, Introduction p(V) and p(67).

[2] – مقامات بديع الزمان الهمذاني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط (3)، 2005، بيروت، لبنان، ص(89).

[3] – الفكر الأخلاقي المعاصر، جاكلين روس، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات، ط (1)، 2001، بيروت، لبنان، ص(10).

[4] – يمكن العودة بخصوص هذا المفهوم إلى:
- L'esthétique de l'existence dans le dernier Foucault, Fabien Nègre, in : Raison présente, n° 118, 1996, p (49) sq.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2. احتراز منهجي:

ألف أرسطو ثلاثة كتب في علم الأخلاق يتصدرها "علمُ الأخلاق إلى نيقوماخوس" (Nicomaque) في عشر مقالات، ثم "علمُ الأخلاق إلى أوديم" (Eudème) في سبع مقالات دون إكمال الثامنة، وأخيرا "علمُ الأخلاق الكبير" (Magna Moralia) في مقالتين. وقد حظي كتاب الأخلاق النيقوماخية بأهمية خاصة حيث أصيب بترجمة من اليونانية إلى العربية على يد إسحق بن حنين (298 هـ)[1]. ومما يؤكد انتشار هذا الكتاب وغيره من مؤلفات أرسطو، قولُ المبشر بن فاتك الآمري (أواخر المائة الخامسة للهجرة) عن أرسطو: "وصنف كتبا كثيرة نحو مائة كتاب، وذكروا أنه صنف غير هذه المائة كتبا أخرى منها ما وقفْنا عليه، وهي اليوم موجودة بأيدي الناس نحو عشرين كتابا"[2]. ثم خص منها بالذكر كتاب الأخلاق [3].

ومما يقيم الدليل على معرفة العرب الدقيقة بمجموع المدونة الأخلاقية الأرسطية قول ابن صاعد الأندلسي (462 هـ) متحدثا عن كتب أرسطو: "وأما التي في إصلاح أخلاق النفس، فكتابه الكبير الذي كتبه إلى ابنه، وكتابه الصغير الذي كتبه إلى ابنه أيضا، وكتابه المسمى أوذيميا" [4]. وقد عوّل منظّرو الفلسفة الأخلاقية، ومن بينهم الجاحظ، على مزيج من أفكار أفلاطون، وجالينوس، وأرسطو، والرواقيين، فضلا عن أفلوطين.. مع تصرف واضح في" الترجمات عن اليونانية أو السريانية، بحيث يضفون عليها ديباجة رائعة " [5].

ويبدو جليا من أعمال الجاحظ التي تمتُّ بصلة إلى علم الأخلاق، أنه كان قارئا حصيفا للمقالة الرابعة من الأخلاق النيقوماخية، بيد أنه لم يكن مجرد متلق سلبي لأعمال أرسطو أو جالينوس أو غيرهما؛ بل أبان عن قدرة خلاقة على إنتاج مفاهيمه النظرية الخاصة، وتبْيِئَتِها في بنية المجتمع العربي، وتحقيق انسجام معرفي بين النظريات الأخلاقية وأخلاق الواقع، على نحو أسهم في وضع لبنات فلسفة أخلاقية أصيلة، سنقف بتؤدة على أبرز ملامحها المميزة، وآليات وسيرورة انبنائها. ونود، بداءةً، أن نلفت النظر، في احتراز منهجي، إلى أننا سنستثني كتاب "تهذيب الأخلاق" المنسوب إلى الجاحظ من خطة اشتغالنا، لأن هذه النسبة ما برحت موضوع خلاف بين الباحثين والمحققين. فقد نُسِب "تهذيب الأخلاق" إلى يحي بن عدي التكريتي (364 هـ)، في طبعات قديمة متعددة نذكر من بينها:

نبذة من الكتاب بعناية يوسف الشلفون، المطبعة العمومية، 1866، بيروت؛

---

[1] – كان المستشرق الإنجليزي دوغلاس مورطون Douglas Morton Dunlop (1909-1987) قد عثر في خزانة القرويين بفاس على القسم الثاني من الأخلاق النيقوماخية مخطوطا، وعاجلته المنية دون إصداره؛ فنشر د. عبد الرحمن بدوي سنة 1979 تحقيقا للكتاب معتمدا فيه على مخطوطتي القرويين، ثم صدر نص ترجمة إسحق بن حنين للأخلاق النيقوماخية مع ترجمة جيدة إلى الإنجليزية هي:
- The Arabic version of the Nicomachean Ethics, Ed. Anna A. Akasoy & Alexander Fidora, 2005, Brill, Leiden, (619 pages).

[2] – مختار الحكم ومحاسن الكلم لأبي الوفاء المبشر بن فاتك، تحقيق [سنرمز لها اختصارا من الآن فصاعدا بـ : (تح)] د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية، ط (2)، 1980، بيروت، لبنان، ص (183- 184).

[3] – (م. ن) ، [المرجع نفسه]، ص (184).

[4] – طبقات الأمم لأبي القاسم بن صاعد الأندلسي، تح. الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، 1912، بيروت لبنان، ص (26).

[5] – مختار الحكم، (م.م) [مرجع مذكور]، ص (4).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

نشرة المطبعة القبطية الأهلية بمصر، 1872؛

منتقيات الأب لويس شيخو وألفرد ديران، 1896، وتستند على طبعتي 1866، و1891 [1]؛

طبعة جرجس فيلوثاؤس عوض، المطبعة القبطية الأهلية، 1913؛

نشرة مار إغناطيوس أفرام الأول برصوم، المجلة الأمريكية للغات والآداب السامية، مجلد 45، العدد الأول، 1928، شيكاغو؛

طبعة مراد فؤاد حقي، مطبعة دير مار مرقس للسريان بالقدس، 1930 (أعاد نشره د. ماجد فخري).

وآخر طبعة محققة لتهذيب الأخلاق صدرت سنة 2002 مترجمة أيضا إلى الإنجليزية، بعناية سيدني غريفيت (Sidney H.Griffith)، أستاذ الثقافة السريانية بالجامعة الكاثوليكية. واستند في إسناد الكتاب ليحيى بن عدي على فرضيات د. سمير خليل اليسوعي [2] التي تستمْرِئُ استبعاد أي مؤلِّف مفترض آخر سوى يحيى، دون أي حجة إلا تواتر الطبعات السابقة، حتى صارت أساسا يبني عليه المستشرقون المتعاقبون، دون استدلال توثيقي علمي مقنع [3]. وكان العلامة محمد كرد علي قد أصدر الكتاب منسوبا إلى الجاحظ في سلسلة بمجلة مجمع اللغة العربي [4]؛ ثم في طبعة ثانية بالمطبعة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق سنة 1924. وظهر

---

[1] - Elementa grammaticae arabica, A. Durand & L. Cheikho, Beryti, Topographia Patrum Societatis Jesu, 1896, pp (244 – 247).

[2] - Yahya Ibn-'Adi : The reformation of morals, trans. Sidney H.Griffith, Brigham Young University Press, 2002, USA, p (XXIX) ;

[3] - Geschichte de Christlischen Arabischen literatur, Georg Graf, Zweiter Band, Città del Vaticano, Biblioteca apostolica Vaticana, 1947, Roma, Italia, pp (248 – 249) ; The philosophical life in tenth century Baghdad : The contribution of Yahya Ibn 'Adi' s Kitab Tahdhib Al- Akhlaq, Sidney Griffith, in : The history of Christian – Muslim relations, Vol. 1, Ed. David Thomas, Brill, 2003, Leiden, p (132) sq.

وحتى المستشرق أوغسطين بيريي Augustin Périer رغم عثوره على مخطوط التهذيب في الفاتيكان (N, Vatican 182) منسوبا إلى أبي الحسن بن الهيثم؛ فقد أصر على أنه لابن عدي رغم أنف الناسخ، ورغم أنف جامعة الأزهر التي نسبته إلى محيي الدين بن عربي:

- Yahya Ben 'Adi, un philosophe arabe chrétien du Xè siècle, Augustin Périer, Thèse de Doctorat ès – lettres, Faculté de Paris, Ed. Paul Geuthner, 1920, Paris, France, p (32) et pp (119 – 120).

وانظر أيضا: مجلة المجمع العلمي بدمشق، ع (3)، فاتح مارس 1925، ص (139 – 140)؛ و "مقالة في التوحيد" للشيخ عدي بن يحيى، تح. سمير خليل، المكتبة البولُسيّة، 1980، جونية، لبنان، ص (52)؛ والكتاب حافل بأخطاء الإحالة والتوثيق. وانظر في الموضوع نفسه مقدمة الترجمة الإيطالية لكتاب التهذيب، الصادرة عن جماعة الأبحاث العربية المسيحية المستندة على "مسلّمات" د. سمير خليل:

- L' affinamento dei caratteri (Tahdib al- akhlaq), trad. Ida Zilio – Grandi, Gruppo di Ricerca Cristiana, 2019, Bologna, Italia, pp (41 – 45).

[4] - تهذيب الأخلاق للجاحظ، مجلة المجمع العلمي بدمشق، المجلد الرابع، الأجزاء 6، حزيران، 1924، ص(243 – 258)؛ و7، تموز، 1924، ص(291 – 306)؛ و8 ، أغسطس، 1924، ص(348 – 365)؛ و9، سبتمبر، 1924، ص(400 – 408)؛ ثم تراجع عن النسبة دون أن يبسط حججه في الموضوع.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كتاب التهذيب منسوبا أيضا لمحيي الدين بن عربي، في نشرات متعددة، وترجم إلى التركية على أنه للشيخ الأكبر [1]. ثم نشره نسيم الهواري مؤخرا على أن مصنفه هو ابن الهيثم [2]...

وإنا وإن كنا نتفق مع د. محمد عابد الجابري على أن كتاب "تهذيب الأخلاق" لا أثر في مادته لحضور المرجعية المسيحية، كما ادعى الملفقون؛ وأن بنية مفاهيمه وتصوراته تدور في فلك الخطاب الفلسفي الهلّيني العربي [3]؛ فلن نعمد بأي حال إلى استبدال اسم الجاحظ بابن عدي، كما فعل جمهرة من الباحثين المسيحيين الذين تنازعوا الكتاب دون أي سند وثائقي راجح؛ ولا تأكيد نسبته إلى ابن الهيثم – كما فعل د. الجابري [4] – مع أن دلائل كثيرة لا تدعم هذا الافتراض، بل تثير شكوكا كثيرة حول صحة النسبة.

إن المدافعين عن عزْو الكتاب إلى غير الجاحظ مطالبون بالرد على الملاحظات الآتية:

1– إجماع كتب التراجم والفهارس المعاصرة ليحيى بن عدي على عدم نسبة أي كتاب في الأخلاق، أو أي ترجمة له[5]؛

2– إهمال أخيه إبراهيم بن عدي، تلميذ الفارابي ومدوّن تصانيفه، أي إشارة إلى الكتاب؛

3 – خُلُوُّ فهارس أو مصنفات تلاميذه من أي إحالة على التهذيب، سواء تعلق الأمر بأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني (بعد 391 هـ)؛ أو بابن مسكويه (421 هـ)؛ أو بأبي حيان التوحيدي (414 هـ) [6]؛

4 – كتاب "الأخلاق النيقوماخية" ترجمه من اليونانية إسحق بن حنين (298 هـ)، وابن عدي لم يكن يتقنها، وإنما كان عالةً في غير السريانية على من أحْكموا لغة المصدر اليوناني, وحيث أن الترجمة اليتيمة التي وصلتنا هي لابن حنين، فيصعب تصديق إغفال يحيى بن عدي الإشارة إلى سلفه، أو إلى من أخذوا عنه من أساتذته، فضلا عن مظان الأفكار الأرسطية والجالينوسية الواردة فيه؛

5 . لم يصلنا أي كتاب في الأخلاق أو السياسة لابن الهيثم، رغم تنصيص كتب الفهارس عليهما. وتتوقف نسبة كتاب التهذيب – لُزوما – على اشتراطٍ علمي هو الفيصل الذي ينبغي أن تحتكم إليه أي دراسة تحترم أصول علم النص (Textologie)

[1] – رأيت له طبعة قديمة صدرت عن مطبعة محمد محمد مطر، بمصر سنة 1332هـ، في 62 صفحة؛ وطبعة أخرى جديدة رديئة التحقيق بقلم عبد الرحمن حسن محمود، عن دار الفكر، ط (1)، سنة 1986، ص(9 – 70). وأشار شكيب أرسلان إلى أن الكتاب ترجم إلى التركية منسوبا إلى ابن عربي، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج (3)، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1997، بيروت، لبنان، ص(397 – 398).

[2] – طبعته دار المعارف المصرية في طبعة حديثة (2020) بالقاهرة.

[3] – العقل الأخلاقي العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط (1)، 2001، بيروت، لبنان، ص (316).

[4] – (م.ن)، ص (318).

[5] - De philosophia peripatetica, E. Renan, Ed. A. Durand, 1852, Paris, France, p (61).

[6] – صوان الحكمة وثلاث رسائل، أبو سليمان المنطقي السجستاني، تح. د. عبد الرحمن بدوي، ط (1)، 1974، طهران، ص (14).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وضوابطه المرعية في التوثيق والتحقيق. وقبل أن نوضحه، نشدد على خلو ما وصلنا من أعمال معاصري ابن الهيثم ومحاوريه، أمثال أبي الحسن بن رضوان (453 هـ)، من أي ذِكرٍ للكتاب [1] .

في غياب قرائن راجحة، يلبث الشرطُ القمين بتبديد الشكوك حول موثوقية وأصالة النسب النصي، إعمالَ المتصدِّر لتحقيق النسب، المنهجَ الإحصائي النصي الحديث (Statistiques textuelles) [2]، بعد رقْمنة المدوَّنات النصيّة (Corpus) الخاصة بالمؤلِّفين المفترَضين جميعاً، ومعارضة نص "تهذيب الأخلاق" معها، وفق ضوابط التحقيق العلمي (Codicologie)؛ بُغْية تحديد الخصائص النصية والأسلوبية التكوينية Génétiques، والسمات الأصولية Stemmatiques الأكثر تقاطعا وانسجاما معه.

3. الخُلُق: الإطار المفهومي:

لفظة "الخُلُق" محمَّلة بما شغل الفكر الفلسفي الأخلاقي العربي من أسئلة وقضايا ترتبط بالوجود، والنفس، والاجتماع، والسياسة.. فقد عُرِّفَ الخُلُقُ بأنه "هيئة للنفس راسخةٌ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسْر، من غير حاجة إلى فكرٍ وروِيَّة"[3]. فمفهوم الخُلُق صفة نفسانية باطنية تلقائية، تستوجب الرسوخ والثبات لتستحكِمَ في الطبْع، وتصير دالةً على صاحبها. وإلى هذا المعنى يشير ابن دريد (321 هـ) معاصرُ الجاحظ بقوله: "والخُلُقُ خلْقُ الإنسان الذي طُبِعَ عليه"[4]. والخَلاقُ "ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقِهِ" [5]. وشرطُ العادة لازِمٌ للخُلُقِ لا ينْفكّ عنه؛ فلا يقالُ: "فلان بخيلٌ ولا جوادٌ إلا إذا كان ذلك دأْبَهُ"[6]. ولذلك قال الجاحظ: "والعادةُ أملَكُ بالأدب" [7]. والتخلُّقُ ضدُّ الخُلُق لأن مبناه على التصنعِ وإظهارِ خلافِ السجيةِ، كما أوضح المبرد (286 هـ)[8]. واختلف منظِّرو الخُلُق بين من قال إن له أصلا فطريا، ومن ذهب إلى أنه يحصُل بالاكتساب، ومن قال بهما معا. فالناشئ الأكبر (293 هـ) تبَنّى الموقف الأول منوّها بأن "الأخلاق تتفق للأزمان، والمناشئ، والعادات، وتختلف لذلك؛ كما تختلف لاختلاف النفوس، والصور،

---

[1] – لا سيما وأن أبا الحسن بن رضوان الطبيب، كان يحاور ابن الهيثم حين حلّ بمصر، وكان مهتما بعلم الأخلاق. يقول في رسالته إلى أطباء مصر والقاهرة أن " الطبيب هو من تكاملت فيه الفضائل كلها التي هي العلم التعليمي والطبيعي والإلهي وصناعة المنطق والطب وصالح **الأعمال ومحاسن الأخلاق**؛ وأنه من كان كاملا في الطب، وناقصا في واحد منها فهو بعد متطبب لا طبيب"؛ رسائل ابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري، تح وترجمة د. يوسف شخت ود. ماكس مايرهوف، مطبعة بول باربيه، 1937، القاهرة، مصر، ص (77 – 78).

[2] – نحيل هنا على أعمال الباحث اللساني إيتيان بروني Etienne Brunet، حول القياس النصي Textométrie، ومنصة برنام القاعدة الموسعة Hyperbase. ولا بأس من الاستعانة بأدبيات التحقيق العلمي، وخاصة المنهج الفيلولوجي الرصين للفقيه الألماني كارل لاخمان Karl Lachmann.

[3] – التعريفات، علي الجرجاني، تح. محمد صديق المنشاوي، (د.ت)، القاهرة، مصر، ص (89).

[4] – جمهرة اللغة، أبو بكر بن دريد، ج (1)، تح. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، 1987، بيروت، لبنان، ص (618).

[5] – المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج (1)، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1997، الرياض، السعودية، ص (210).

[6] – الهوامل واشوامل، أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه، تح. أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951، القاهرة، مصر، ص (119). والعادة قاسم مشترك مع الحقل الدلالي لمفهوم Ethique المشتقة من Ethos اليونانية؛ وتعني العادة، والطبع، والاستعداد النفسي، والهيئة الباطنية أيضا، قبل انتقالها إلى الدلالة الاصطلاحية اللاتينية Ethicus.

[7] – مجموع رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح. د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، 1983، بيروت، لبنان، ص (205).

[8] – الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، ج (1)، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط (3)، 1997، القاهرة، مصر، ص (17). وإلى التخلق يشير الشاعر بقوله: (يا أيها المتحلّي غيْرَ شيمتِهِ # إنّ التخلُّق يأتي دونه الخُلُقُ).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والطباع" [1]. والجاحظ انضم إلى القائلين بالأصل الطبْعِيّ للخلق، مع تهذيب المَلَكات وصقلها؛ وتحصيل الفضائل بالتعلم والتربية. وفي الحقل الدلالي للخُلق، تدخل ألفاظ: العادة، والطبع، والدين [2]، والأدب، والسجيّة، في علاقات ترادُفٍ وتَشاكُلٍ، في الجمّ الغفير من الأدبيّات الفلسفية واللغوية العربية القديمة. وفي تصوُّر أبي سليمان السِّجِستاني (380 هـ) أن الفرق بين القائلين بالطبع، والقائلين بالرويَّة مردُّهُ إلى كون "البديهة تَحكي الجزء الإلهي بالانبجاس، وتزيد على ما يغوص عليه القياسُ، وتسبِق الطالِب والمتوقَّعَ؛ والرويّة تحكي الجزء البشري، وكذلك الفكر والتتبّع والاستمداد والتوقّع" [3] . ويُسْفِرُ البحثُ في الفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ، واستقراءُ نصوصه الكلامية والأدبية، عن ثلاثة مبادئ كبْرى تمثِّلُ اشتراطاتٍ إبّستمولوجية لمفهوم الخُلُق والأخلاق النظرية (Ethics) عنده. ونقصد باصطلاح الأخلاق النظرية، عِلْمًا قائمَ الذاتِ مصادِرُهُ يونانيةٌ أرسطيةٌ أساسا، انتقلتْ نصوصُهُ إلى الدراسات العربية على النحو الذي عرضْنا له في الفقرة الثانية. وتتميز الأخلاق النظرية بمَيْلِها إلى تفكيك قواعد السلوك التي تؤسس الأخلاق، والأحكام الأخلاقية. أي أنها تُقَدِّم تصورا نظريا عن توليد القِيَم والأحكام والالتزامات الأخلاقية، في البنيات الرمزيّة للنسق الثقافيّ، ورسْمِ ملامحِ اتِّساقها التصوُّريّ [4].

4. المبادئ الأونطولوجية المؤطرة للخلق:

4 – 1 – مبدأ الفطرة/الكسب: معلوم أن الجاحظ، في بدايات تشكُّل منظوره الفلسفي، كان يقول بطبعيَّة الأفعال، وكسبيّة الإرادة. وارتأى أن "سائر الأفعال تنسب إلى العباد على أنها وقعت منهم طباعا، وأنها وجبت بإرادتهم"[5]. وقد أبدى إصرارا على القول بالفطرة والطبع حتى في المعرفة، رغم اعتراض جل المعتزلة. فذهب إلى أن "المعارف تقع ضرورةً بالطبع عند النظر في الأدلة؛ و النظرُ ربما وَقَعَ طبعا واضطرارا، وربما وقع اختيارا؛ فمتى قوِيَتِ الدواعي في النظر وقع اضطرارا بالطبع، وإذا تساوت وقع اختيارا" [6]. وهو رأي أنكره عليه سائر المعتزلة؛ لأن القول بطبعية المعارف واضطراريتها ينفي عندهم أفعال العقل والنظر جملةً، كما ينفي التكليف الذي كان قيَّده الجاحظ بشرط قيامِ الأدلة، والعلمِ بالعادات واختبارِها، بل إن القول باضطرار الإرادة ينفي حرية الاختيار أصلا. وفي تقديري أننا نستطيع أن نكتشف في آثار الجاحظ مواقف ثلاثة متباينة تشكل لحظات نظرية متمايزة: لحظة القول بطبعية المعرفة والأفعال كما حددناها أعلاه؛ ولحظة القول بمركزية العقل، وتولُّد المعرفة عن النظر والاكتساب؛ ولحظة نضج الفكرة بالجمع بين الفطرة والاكتساب في كثير من أعماله الأخيرة. فعلى الباحثين تدقيق النظر فيما يمكن تسميته بجدليةِ تشكُّل الفكرةِ عند الجاحظ، بدءا من مرحلة البناء، فالتعديل، فالاستقرار؛ وهذه الخاصية سمةٌ بارزةٌ في

---

[1] - Frühe Mu'Tazilitische häresiographie, Zwei werke des Nasi' al – Akbar, Josef Van Ess, Orient – Institut, 2003, Beirut, Lebanon, p (125).

[2] – كشاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، تح. علي دحروج، مكتبة لبنان، ط (1)، 1996، بيروت، لبنان، ص (762).

[3] – صوان الحكمة وثلاث رسائل، (م.م)، ص(15).

[4] – الفكر الأخلاقي المعاصر، (م.م)، ص (11).

[5] – فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، القاضي عبد الجبار، أبو الحكم البلخي، الحاكم الجشمي، تح. فؤاد سيد، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، دار الفارابي، ط (1)، 2017، بيروت، لبنان، ص (16).

[6] – المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الأسد آبادي، ج (12)، تح. إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط (1)، 1958، القاهرة، مصر، ص (316).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

محطات مساره النظري، والبرهاني. فالفطرة مسلَّمة في نظرية المعرفة عند الجاحظ، ويسميها "عقلا مطبوعا"، وهو آلة يصقلها "العقلُ المكتسَب" [1]؛ ويسميه أحيانا "طبعا ثانيا" [2]. فالطبع، مع ذلك، لايغني عن الاكتساب، إذ لا وجود – في تصور الجاحظ – لعقْل قبْلي تام مستقل وجاهز، بل تفعل فيه التنشئة الاجتماعية والتربوية والأخلاقية والمعرفية [3]؛ وتأسيسا على ذلك، "تُكتَسب الأهواء، وتُتَعلَّم الألسُن والأخلاق بالمنشأ"[4] على حد قوله. والجاحظ يكشف عن فهم جدلي عميق للطبائع التي تدخل الأضداد في تشكيلها، لأن الأضداد في تصوره صورة عن الجدل الوجودي. فليس ثمة خير مطلق، ولا شر مطلق، ولذلك فأُحادية الأبعاد ضربٌ من الاستحالة في خواصِّ الاجتماع البشري[5].

4 –2– مبدأ العقل/الواجب، والاستطاعة/الجزاء: فقد أفاد النظر الفلسفيّ عند الجاحظ من تأويلات المدرسة الاعتزالية التي جعلت الأخلاق العملية موضوعا للبرهان العقلي، لأن العقل سابق – في تصورهم – على السمع [6]؛ بل هو مناط التكليف، فالثابت "أن العلم بأنّ في الفعل نفعا، يدعوه إلى فعله" [7]. والعقل يدلّ على الواجب الأخلاقي؛ وأَوْجب الواجبات عندهم النصيحةُ، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر [8]. وعند الجاحظ أيضا أن أساس الوجود الإنساني هو "الاستطاعة والتمكين، وفي وجودِ الاستطاعة وجودُ العقل والمعرفة؛ وليس يوجِبُ وجودُهُما وجودَ الاستطاعة" [9]. فالاستطاعة هي القدرة – عن اختيار وعن قصد وإرادة – على الفعل وعلى ضده؛ وهي أحد أُسُسِ التكليف والجزاء: فالعقلُ وظيفته التفكير والاعتبار، والمعرفةُ وظيفتها ترجيح الحق، والاستطاعةُ غايتها "إلزام الحجة" [10]. وعلى ثالوث العقل، والمعرفة، والاستطاعة، مدارُ الاختيار، والتكليف، والجزاء [11]. فمتى كانت الاستطاعة "أقبل وجودُ الفعْل" [12]. وقد أصر أبو علي الجُبّائي (303 هـ) شيخُ المعتزلة، على أن الفاعل مسؤول عن أفعاله، وأنه "يستحيل كوْنُ الفاعلِ للإرادة مريدا لها بإرادةٍ أخرى" [13]. فالخُلُق، من ثم، لا بد فيه من حريةِ الاختيار،

---

1 – مجموع رسائل الجاحظ، (م.م)، ص (126).

2 – (م.ن)، ص (127).

3 – كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، الجاحظ، دار الندوة الإسلامية، 1988، بيروت، لبنان، ص (42).

4 – رسائل الجاحظ، الجاحظ، ج (2)، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص (186).

5 – كتاب التربيع والتدوير، الجاحظ، تح. شارل بلات، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1955، دمشق، سوريا، ص (67).

6 – المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الأسد آبادي، ج (14)، تح. مصطفى السقا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط (1)، 1958، القاهرة، مصر، ص (151).

7 – المغني، ج(12)، ص (492).

8 – فضل الاعتزال، (م.م)، ص 88).

9 – الحيوان، الجاحظ، ج (5)، تح. عبد السلام محمد هارون، مطبعة بابي الحلبي، ط (2)، 1966، القاهرة، مصر، ص (543).

10 – (م.ن)، ص (544). تكرر ورود الاستطاعة في مساقات عديدة من الحيوان، انظر: ج (6)، ط (2)، 1967، ص (37)؛ و ج (7)، ط (2)، 1968، ص (72).

11 – ما لم يُنشر من تراث الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح. د. حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1979، بغداد، العراق، ص (34).

12 – الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، ج (3)، تح. عبد ارحمن خليفة، مطبعة صبيح، ط (1)، 1347 هـ ، القاهرة، مصر، ص (21).

13 – شرح المواقف، علي الجرجاني، ج (6)، تح. محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1998، بيروت، لبنان، ص (76).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والعلمِ بفحواه حمدا أو ذمّا، وإرادتِه، والاستطاعةِ عليه، مع ترجمةِ الإرادة إلى سلوكٍ مدْرَكٍ. فالإرادة الحرة تنزع إلى اختيار الفعل برويَّةٍ وتأمُّلٍ في الآثار والعواقب؛ ولذا فهي إرادةٌ مسؤولةٌ، ولا فرق عند الجاحظ هنا بين الدين والدنيا مادامت "أُصولُ أمورِ التدبير في الدين والدنيا واحدةً" [1]؛ في إطار تصور شامل يؤمن بإرساء منهج توفيقيٍّ بين ما يسميه بتحقيق التوحيد، وتحقيق الطبائع العمليّة، أي بين الشريعة، والعقل [2].

4 – 3– **مبدأ حرية الاختيار**: أسس المعتزلة قطيعة معرفية مع نموذج الجَبْريّة؛ فذهبوا إلى أن مُطلق المشيئة الإلهية هو في أصل التوحيد، وأن تقرير حرية الإنسان هو في أصل العدل لضرورةٍ يقتضيها التكليف، وتُحتّمها الواجبات الأخلاقية والشرعية [3]. على أنه لا تعارض بين الأصلين، ولكن الأمر يتعلق بتمييز إجرائي بين مجالي الاعتقاد، والعمل[4]. وقول المعتزلة بحرية الإرادة – كما يؤكد ذلك د. أحمد محمود صبحي – يَحْكُمُه وعي بضرورة الالتزام، وأداء الواجبات، والتكاليف[5]. ناهيك عن أن الأوامر الأخلاقية تصير بلا جدوى إذا لم يكن الإنسان حرّا وسَيِّدَ أفعالِهِ[6].

5. الملاحظة الأخلاقية عند الجاحظ/ الأخلاق العملية والأخلاق السياسية:

كان ميْل الجاحظ إلى الحرية اختيارا فكريا وفلسفيا في حياته. فقد زهد "في الاندماج في طبقة معينة من طبقات العلماء كالمحدّثين، والفقهاء، والنحويين"[7]، واستعفى من منصب ديوان الرسائل، وأسس مدرسته الخاصة في الاعتزال. وعلى رغم الودّ الذي ألّف الجاحظ والوزير محمد بن عبد الملك الزيات (233 هـ)، والقاضي أحمد بن أبي دُؤاد الإيادي (240 هـ)، والأمير الفتح بن خاقان (247 هـ)، فقد تميز فكره السياسي – رغم انحيازه الظاهر لبني العباس – بنُصرة العدل، ومقاومة أشكال الاستبداد والتعصب، والتنظير لخطاب عقلاني نقدي في الأخلاق السياسية[8]. إن النزعة الإنسانية التي كانت مفتتح مقالتنا تشكل السياسةُ تَجَلِّيها الأسمى عند الجاحظ؛ لأن السياسة نوع من ممارسة الأخلاق العملية. ونكاد في هذا السياق نلْحظ إسقاطا جدليا للمفاهيم والمبادئ الأونطولوجية التي بنى عليها الجاحظ دعائم الأخلاق النظرية في أعطاف الرسائل والكتب؛ مما يعفينا من التوسعة والتفصيل. فواضح أن تلك المبادئ والقوانين الأخلاقية ليست في مجموعها " ترفا عقليا، وإنما هي قواعد للعمل" [9] . وهو جوهر بناء النظرية الأرسطية.

---

[1] – مجموع رسائل الجاحظ، (م.م)، ص (129).

[2] – الحيوان، الجاحظ، (م.م)، ج (2) ، ص (134 – 135).

[3] – الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، د. أحمد محمود صبحي، دار المعارف، ط (2)، 1983، القاهرة، مصر، ص (161).

[4] – (م.ن)، (ص.ن).

[5] – (م.ن)، ص (163).

[6] - Histoire de la philosophie islamique, Henri Corbin, Ed. Gallimard, 1964, Paris, France, pp (159 – 160).

[7] – أصالة الجاحظ، شارل بيلا، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ص (10).

[8] – أحيانا يأخذ نقد الجاحظ السياسي ملمحا جذريا كما نلْحظ في الغلظة على معاوية وأبنائه؛ ودفاعه المستميت على العباسية، ومناصرته للطائفة العثمانية، وتعاطفه مع الزيدية، ومعارضته لغلاة النابتة والدهرية.. انظر: رأي أبي عثمان في معاوية والأمويين، عزت العطار الحسيْني، مكتبة الخانجي، 1946، القاهرة، مصر؛ ورسائل الجاحظ المذكورة.

[9] – الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، (م.م)، ص (31).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فعلم الأخلاق حسب التصور الأرسطيّ "مدخل للسياسة التي بها تمام فلسفة الأشياء الإنسانية" [1] . كما أن " العلاقة بين الأخلاق والسياسة، هي لبّ العلاقة بين المجتمع والدولة" [2]. إن المبدأ الناظم للفكر السياسي عند الجاحظ مزيج من قوانين الطبيعة، والحركية الاجتماعية. فهو يصرح في "الدلائل والاعتبار" بأن "الطبيعة لا تفعل شيئا لغير معنى" [3] ؛ ويعارض مبدأ الحتمية، لأن الدخول إلى العالم – على حد قوله – لئن كان دخولا في تدبير محكم، فهو لا يحرم الإنسان قطعا من "الاختيار والتجربة" اللذين بهما فُضّل الإنسان، وبهما تُحْمَلُ "النفس على البر والعمل الصالح احتسابا للثواب" [4] . والاختبار والتجربة هما نتاج اللوغوس "أو الحجة"[5]. إن الجاحظ ليس مفكرا طوباويا كما قد يتبادر إلى الأذهان، ولكنه يسعى في أعماله إلى اشتقاق مفاهيم كلية مشتركة من علوم الطبيعة، فهو يربط السلوك بما يسميه "العلل الباطنة المحركة" محاولا فهم طبيعة السلوك وخصائص الفكر الإنساني من ملاحظاته التجريبية لعالم الحيوان، والعكس صحيح، ولذلك وجدناه يمارس في سياقات متعددة من تنظيراته إسقاطات تصورية بين المجالين. فالجدل حقيقة كونية لدى الجاحظ، وليس ثمة كائن أحادي الأبعاد. ولا يمكن اشتقاق القانون الأخلاقي إلا بعد استقراء ما يسميه بالطبْع الإنساني، لأن الخير الذي يصبو إليه الجاحظ ليس خيرا لحْظيا خاصا، تحكمه الحاجة والنفع العارضان، ولكنه خير كليّ يعم المجتمع والإنسانية قاطبة. إن فهم حقيقة الطبع البشري يجعل "الأمر والنهي وحدهما غير ناجعين" [6]، وتتوقف نجاعتهما على "الترغيب والترهيب" المتأصلين في الطبع؛ فالواجبات، من ثم، ليست شيئا يُملى خارج فهم جوهر الطبيعة الإنسانية. ولولا هذه الالتفاتة إلى الطبع لفسد المجتمع الإنساني جملة. فالأخذ بالرفق واللين والكياسة، نمط تواصلي أعلى يزيد بنية المجتمع لحمة وتماسكا؛ والجاحظ يتمثل هنا بمقولة "محمد بن علي" الذاهبة إلى أن مبنى "صلاح شأن جميع الناس في التعايش والتعاشر"[7] ؛ فالاجتماع ضروري، و"حاجة بعض الناس إلى بعض، صفة لازمة في طبائعهم، وخِلْقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تُزايلهم" [8]؛ وهو عين ما أورده ابن المقفع (142 هـ) في "الأدب الصغير" حين قال: "إن لكل مخلوق حاجةً، ولكل حاجة غايةً، ولكل غاية سبيلا؛ والله وقَّتَ للأمور أقدارها، وهيأ إلى الغايات سبلها، وسبَّبَ الحاجات ببلاغها، فغاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد؛ والسبيل إلى دركها العقلُ الصحيحُ" [9]. والتعاقد المبني على الحاجات المشتركة والمتضامّة، يتحقق – في نظر الجاحظ – بالتواصل المعبّر عن "حقائق الحاجات" في المجتمع الإنساني، ويسميه الجاحظ "البيان" [10]. وقد جعل الجاحظ قسمة البيان على قدر الخصائص المشتركة بين الأفراد في التفاعل والتفاهم "لأن الشِّكْل أفهم عن شِكله، وأسْكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك – يضيف الجاحظ – موجود في أجناس البهائم"، و"الصبي عن الصبي

[1] – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، (م.م)، ج (1)، ص (77).

[2] – Les penseurs de la Grèce, Théodore Gomperz, Trad. Aug. Reymond, 2è éd , Librairie Payot, 1910, Paris, France, p (270).

[3] – الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، (م.م)، ص (60).

[4] – (م.ن)، (ص.ن).

[5] – يقول الجاحظ: " العقل هو الحجة"، كتاب الحيوان، (م.م)، ج (1)، ص (207).

[6] – مجموع رسائل الجاحظ، تح. د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، 1983، بيروت لبنان، ص (133).

[7] – مقولة نقلها الجاحظ، وردت في: زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم الحُصْري القيرواني، ج (1)، تح. د.علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، 1953، القاهرة، مصر، ص (77).

[8] – كتاب الحيوان، ج (1)، ص (42).

[9] – آثار ابن المقفع، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1989، بيروت، لبنان، ص (283).

[10] – كتاب الحيوان، ج (1)، ص (44).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أفهم له.. وكذلك العالِم والعالم، والجاهل والجاهل" [1]. وهذا التناسق هو عن الجاحظ قانون كوني، لأن كنْه الإنسان، وأنماطه، وأجناسه، بنية صغرى داخل بنية أكبر؛ ولذلك يقول الجاحظ: "إنما سمَّوه العالَمَ الصغير سليلَ العالم الكبير، لِما وجدوا فيه من جَمْع أشكال ما في العالم الكبير" [2].

يقوم المجتمع الإنساني، إذن، على اجتلاب المصالح ودفع المضار، وهو مبدأ مشترك – في تصوره – بين المجتمعين البشري والحيواني [3]؛ على أن ما يميز المجتمع الإنساني بخاصة، هو العدل بوصفه حاجة ومطلبا مركزيين. فالأخلاق السياسية عند الجاحظ تجعل العدل أصلا، وأداء الأمانة في صدارة "الواجبات"، بعد "معرفة الخالقِ" [4]، واجبِ الوجود. فـ"تسليط العدل وإنفاذُ الحكومة فيه صلاح الرعية" [5]، وكذلك الثواب، والعفو، والبِر، والصفح، والصلاح هي جميعاً من جنس الأخلاق المحمودة التي تزيد المجتمع أمنا وانسجاما وتضامنا. وأساس الأخلاق "الاعتدال" المشترك مع العدل مبنى ومعنى. فصلاحها ما صلُح الاعتدال فيها، وإلا "فبقدر ما يخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولّد منها" [6]. والعدل يرتبط سببيا بالحرية، لأنه "حيث لا حرية فلا أخلاق" كما قال أفلاطون [7]؛ وقد تناولنا في محور المبادئ الأونطولوجية، مفهوم حرية الاختيار عند الجاحظ، ولا شك عنده في أن التضييق على حرية العقل إكراه وجبْر يضاد الفطرة الإنسانية، وطبيعة التواصل الإنساني في أبعاده العقلانية والفلسفية والسياسية؛ ويؤذن بانتقاضِ بنْيان الاجتماع... ومن اسْتمْرأ الفساد يَعِزُّ إصلاحُهُ؛ يقول الجاحظ: " ولا يهتم بإصلاح يومِهِ، وتقويم ساعتِهِ، من قد استحوذ الفساد على دهْرِه" [8]. وقال في "رسالة البُرصان": " ولا أعْلم الموصوفَ بالاستبداد إلا مُجَهَّلا مذموما" [9]. ومفتاح الإصلاح عنده "محاسبةُ النفس"؛ يقول الجاحظ: "فاجعل محاسبة نفسك صناعة تعتقدها، وتَفَقُّدَ حالاتك عُقدة ترجع إليها، حتى تخرُجَ أفعالك مقسومةً محصَّلَةً، وألفاظُك موزونةً مُعَدَّلةً، ومعانيك مصفَّاةً مهذبةً، ومخارجُ أمورك مقبولةً محبَّبَةً، فمتى كانت كذلك، كانت رقَّتُك على الجاهل الغبي بقدر غِلظتك على المعاند الذكي، وتحبُّ الجماعة بقدر بُغضِكَ للفُرقة، وترغب في الاستخارة والاستشارة بقدر زُهدِك في الاستبداد واللجاجة، وتبدأُ من العلم بما لا يسَعُ جهلُهُ قبل التطوع بما يَسَعُ جهلُهُ" [10].

---

1 – (م.ن)، ص (45).
2 – (م.ن)، ص (212).
3 – مجموع رسائل الجاحظ، (م.م)، ص (132).
4 – الدلائل والاعتبار، (م.م)، ص (55).
5 – مجموع الرسائل، ص (153).
6 – (م.ن)، ص (138).
7 – علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، (م.م)، ج (1)، ص (42).
8 – مجموع الرسائل، ص (198).
9 – البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان، الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط (1)، 1990، بيروت، لبنان، ص (28).
10 – (م.ن)، ص (28 – 29).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إن الجاحظ نسيج وحده في الأخلاق السياسية، فهو نموذج لتناقضات عصره، يتفاعل مع الشروط التاريخية العامة بإكراهاتها ومآزقها وبنية "المسكوت عنه" فيها. وتظل الصورة التي نرسمها عن فكره السياسي نسبية، في غياب رسائله الضائعة حول " الوزراء"، و"أخلاق الوزراء"، ورسالته في "القضاة والوزارة والولاة" [1].

بعد تشكُّل البيروقراطية العباسية من العرب، وفُرس خراسان، وبرامكة آسيا الوسطى، والمسيحيين النساطرة، وأقلية يهودية مسؤولة عن المالية وتحصيل الضرائب [2]؛ برزت إلى الوجود عائلات أرستقراطية فارسية تبوَّأت مكانة مهيبة في مواقع المسؤولية السياسية والإدارية، والثقافية، خاصة مع حاجة الدولة إلى تجديد مؤسسات الحكم عبر الانفتاح على أنظمة وأدبيات التدبير الاقتصادي، والسياسي الفارسية بخاصة [3] (البرامكة، وآل نوبخت، وبنو المنجِّم). وقد أضْفت سرديّةُ حفْظ ملوك الفرس عيونَ التراث اليوناني من الضياع عبر ترجمتها إلى الفهلوية، قبل انتقالها مترجمةً إلى العربية، سِحْراً خاصا على الإسطوغرافيا الفارسية [4].

6. كتاب "التاج"، و"الأدب الكبير":

لا يمكن، أولا، حجب التقاطعات الواضحة بين ثيمات "الأدب الكبير" والأخلاق النيقوماخية (الصداقة، العدالة، الاعتدال، ضرورة المعرفة، العقل، ألخ). فقد شكَّلت خلفية أيديولوجية حملتها أنتلجنسيا معارَضَةِ الاستبداد الأمويّ، ثم تطور منظورها السياسي تحت التأثير الهليني والساساني؛ محْوَراها: الإمامة والأخلاق [5]. وكان ابن المقفع منظرها الأسبق، والجاحظ نقطة امتدادها في القرن الثالث الهجري. وأبرز الباحث "هانس دايبر" (Hans Daiber) مجموعة وفيرة من الاقتباسات، تؤكد عمق التأثير الأرسطي في فكر عبد الله بن المقفع الأخلاقي [6].

وفي السياق ذاته، كان لترجمة رسالة "تَنْسَر" [7] من الفهلويَّة إلى العربية أثر واضح على رسالة التاج للجاحظ؛ بما حوته من نظم قانونية، واجتماعية (طبقات أهل الدين، وكتَّاب الدواوين، والأطباء، والعلماء، والزُّرَّاع، والتجار، والحِرفيين)؛ والشارات والتقاليد

---

[1] - From the Greeks to the Arabs and beyond, Hans Daiber, Brill, 2022, Leiden, p (334), & p (336).

[2] - The Abbasid house of wisdom, Ekmeleddin Ihsanoglu, Ed. Routledge, 2003, London, p (2).

[3] – معلوم أن الحجاج بن يوسف كان، منذ زمن، قد أمر صالح بن عبد الرحمن " وكان يكتب بالعربية والفارسية (..) أنْ ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية "، المقدمة، ابن خلدون، تح. عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط (1)، 2004، دمشق، سوريا، ص (427).

[4] - Tracce di opere greche giunte agli Arabi per trafila pehlevica, Carlo A. Nallino, in : عجب نامه A volume of oriental studies presented to Edward G. Browne, Ed. Arnold & Nicholson, Cambridge University Press, 1922, pp (362 – 363) ; Pensée grecque, culture arabe, Dimitri Gutas, Trad. Abdesselam Cheddadi, Ed. Aubier, 2005, Paris, France, pp (56 – 60), pp (75 – 79).

[5] - Das kitab al-Adab al-Kabir des Ibn al-Muqaffa' als Ausdruck griechischer ethik, Islamischer ideologie und iranisch – sassanidischer , Hofetikette, in : Oriens, 43, 2015, Brill, Leiden, p (274).

[6] – المرجع السابق، ص (283 – 284).

[7] – " تنسر" هو كبير علماء الدين في قصر الإمبراطور "أردشير بابكان الأول" مؤسس الدولة الساسانية؛ كلفه بكتابة هذا المصنَّف تخليدا لآثار الأقدمين. وقد أُعيدَ تحقيق الكتاب في لغته الفارسية الأصلية، على يد مجتبى مينوي، ونشرتْه دار الخوارزمي سنة 1975، ط (2)، طهران، ويقع في 259 صفحة.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

السلطانية (Chancellerie). ومما يؤسف له ضياعُ ترجمة ابن المقفع التي لا يخامرنا أدنى شك في أن الجاحظ طالَعها، وأفاد منها؛ ونجتْ من براثن الضياع ترجمةُ المؤرخ ابن إسفنديار (بين 606 – 613 هـ) لكتاب ابن المقفع، من العربية إلى الفارسية [1]. كما أن حمزة بن الحسن الأصفهاني (360 هـ) المعروف بفصوله المختارة من كتب الجاحظ، احتفظ لنا في كتابه "تاريخ سَنِيّ ملوكِ الأرض والأنبياء" بقطَعٍ من "تنسر" كان قد جمعها من سبعة كتب كانت حتى ذلك العهد بمنجاة من الضياع، وهي: "كتاب سِيَر ملوك الفرس" (خداي نامه) بترجمة ابن المقفع، ثم محمد بن الجهم البرمكي معاصر الجاحظ، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني، ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني، فضلا عن مترجم خامس مجهول؛ ناهيك عن كتاب "تاريخ ملوك بني ساسان" بترجمة هشام بن القاسم الأصفهاني، وبهرام بن مَرْدانْشاه [2]. وكانت ترجمتان أُخْرَيان رائجتين لكتاب سير ملوك الفرس أنجزهما موسى بن عيسى الكسروي، وعمر بن الفروخان[3]. ورغم اتفاق جمهرة من الباحثين على فهم الجاحظ للفارسية [4]، فإننا نستبعد أن يبلغ فيها حدَّ إتقان قراءة المصادر بلغتها الفهلوية. ولم يمنعه ذلك من تعميق اطلاعه على سرديّات إبراهيم بن السِندي بن شاهَك (أحد أسلاف الشاعر محمود كُشاجم (360 هـ))، وصباح بن خاقان المِنْقريّ التميمي، ومحمد بن الجهم مترجم كتاب سير الملوك، وعلى أمهات سِيَر ملوك الفرس[5]، وسيرة أنوشروان[6]. في كتاب "التاج" [7] الذي أهداه الجاحظ للأمير ذي الأصول الفارسية الفتح بن خاقان (247 هـ)، حاكى صنْوه ابن المقفع في كتابه الموسوم بـ"التاج في سيرة كسرى أنوشروان" في إبراز أحد الأطر المرجعية للسياسة العربية، فعن

والجدير بالذكر أن للكتاب ترجمات إلى لغات عديدة، منها الفرنسية (بقلم دارمستتر J. Darmesteter (1894)، وهي ترجمة رديئة)؛ والإنجليزية (بقلم بويس M. Boyce (1968)، وهي نشرة جيدة). يمكن العودة إلى هذه النشرة حيث حديث عن الترجمة القديمة لابن المقفع:

- The letter of Tensar, Trans. M. Boyce, Ed. Instituto Italiano Per Il Medio, 1968, Roma, Italia, pp (1 – 25).

[1] – انظر رسالة تنسر في: تاريخ طبرستان لبهاء الدين بن إسفنديار، ترجمة أحمد محمد نادي، المجلس الأعلى للثقافة، ط (1)، 2002، القاهرة، مصر، ص (27 – 72). وراجع: كتاب تنسر، ترجمة يحي الخشاب، جمعية النشر الأزهرية، 1954، القاهرة، مصر. وللاستفاضة يمكن العودة إلى أعمال المؤرخ عباس إقبال الأشتياني التي اعتمد عليها المستشرق الإيطالي فرانشيسكو غابرييللي (F. Gabrieli)، في التعريف بآثار ابن المقفع:

- Abdollah Ibn – al – Moqaffa' , Abbas Iqbal, in : Orientalischer Zeitschriftenverlag Iranschähr, G.M.B.H, Grunewald Friedrichsruherstr, 37, 1926, Berlin.

[2] - Annalium, Libri X, Hamzae Isphanensis, Ed. I.M.Gottwald, Textus arabicus, MDCCCXLIV, Lipsiae, pp (8 – 9).

يشير حمزة إلى اعتماده على نُسخ ثمانية، ولا يذكر إلا سبعا فقط. والظاهر أنه كان يرجع إلى نسختين من كتاب واحد.

[3] - Khwadaynamag – The middle persian book of kings, Jaako hämeen – Anttila, 2018, Brill, Leiden, p (62), pp (76 – 89).

[4] - Le milieu Basrien et la formation de Gahiz, Charles Pellat, Librairie Maisonneuve, 1953, Paris, France, pp (67 – 68).

[5] - The history of kings of the Persians' in three Arabic chronicles, Trans. Robert G. Hoyland, Liverpool University Press, 2018, United Kingdom, pp (141 – 142).

[6] – التعبير الصحيح: خُسرو أنوشيروان، أي " الروح الخالدة".

[7] – كتاب التاج في أخلاق الملوك، الجاحظ، تح. أحمد زكي باشا، المطبعة الوطنية، 1914، القاهرة مصر. وقد ترجمه المستشرق شارل بيلا ترجمة جيدة إلى الفرنسية صدرت سنة 1954.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الأعاجم وملوك الفرس – يقول الجاحظ – "أخذنا قوانينَ الملك والمملكة وترتيبَ الخاصة والعامة، وسياسةَ الرعية، وإلزامَ كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها"[1]. وكانت "وظيفة الجاحظ في هذا العمل، أنْ ينقل ما راقه من الآداب التي دونها الفرس في آيينهم (عوائدهم) وقوانينهم؛ ويُسَطِّر ما تلقاه من شيوخه، أو سمعه من أقرانه، أو تلقَّفه عن صحابته مما يتعلق بأحوال الخلفاء والسادات" [2]. ولا ريب، فالبراغماتية السياسية التي تحلّى بها الجاحظ إزاء دولة بني العباس، ورغبته الواضحة في تحصين مكتسبات ما بعد الخلافة الأُموية، جعلتا منه – على غير العادة، محتذيا تفاصيلَ النموذج الفارسي في مظاهر وقوانين السلطة السياسية، ومناديا بنوعين من الأخلاق السياسية: "أخلاق التفرد"، مقابل "أخلاق الطاعة" [3]؛ ذلك أنَّ أخلاق الملوك حتى وإن كانت تقبل الإصلاح والتهذيب "بأسهل القول، وألين اللفظ، وأحسن المخاطبة" [4]؛ "ليست كأخلاق العامة" [5]. وهو فرق ينبغي أن يعلن عن نفسه عبر مجموعة من الشارات والعلامات والتعبيرات السيميائية الدالة والقارة في مظاهر المُلك والسيادة (Souveraineté) [6]. فأخلاق التفرد عند الفرس تقتضي تملُّكا يختص به الحاكم دون الغير، حتى و "إن أمكنه التفرد بالماء والهواء" حسب عبارة الجاحظ [7]؛ لأن "البهاء، والعز، والأبهة، في التفرد" [8]. هنا، كما في كثير من المواطن، يجنح الجاحظ إلى مبارحة الاعتدال (Modération)، إلى بعض المحافظة والتشدد، والتزام مسافة من مفاهيمه النظرية، ومبادئه الأونطولوجية، مقدما – عبر هذا الكتاب – صورة عن السلطة التي تنافي مفاهيم الحرية، والعدل، والتعاقد.. نلمس شبها مع مواقف عديد من الفلاسفة، وفي طليعتهم "دايفيد هيوم" (David Hume). وإني لأكاد أجزم بأن الجاحظ في "التاج" يقدم لنا صورة حقيقية عن السلطة السياسية المحتجِبة، وأشكال ممارستها؛ تلك السلطة التي يفضل أن يقرأها، ولا يشارك في ممارستها أو الخضوع لسطوتها وغوايتها.على أن القسم الأكبر حجما في الكتاب هو المخصص للنظُم الإدارية، وطقوس التشريفات التي استوحاها من عهد "أردشير"، وسير سلاطين الفرس، وملوك العرب والعجم، والأدبين الصغير والكبير لابن المقفع.. فتناول فيها آداب الدخول، والمؤاكلة، والمنادمة، والمخاطبة، والمجالسة، وكتم الأسرار، واختيار الرُّسل (السفراء)، ومعاملة الأمراء. وإجمالا، فالجاحظ –كما قال د. الجابري – كان واعيا و"مدركا أن النموذج كان أرقى في مجاله من تطبيقاه العربية" [9]؛ فاجتهد في تقديم تصور عن تبْيئته وتنزيله. بيد أن هذا التوجه في الأخلاق السياسية، سنجد عليه تحفظا من الجاحظ نفسه، في فصل لم يسبق نشره، من الفصول المختارة التي جمعها حمزة بن الحسن الأصفهاني، إذ يقول: " ولولا أن دولة بني العباس صارت عجمية خراسانية، وكانت دولة بني مروان عربية أعرابية في أجنادٍ شآمية، والعربُ أوعى لما تصنَع، وأحفظُ لِما تأتي؛ أولا بالشعر الذي يقيد عليها مآثرها، ويخلد بها محاسنها، فنَبَت بذلك لبني مروان شرفٌ كبير، ومجد تليد، وتدابيرُ لا تحصى، لأربى مناقبُ ملكٍ

---

1 – (م.ن)، ص (21).
2 – (م.ن)، ص (33).
3 – (م.ن)، ص (2)، و ص(19).
4 – (م.ن)، ص (4).
5 – (م.ن)، ص (15).
6 – لا ينبغي أن يندَّ عنَّا أن هذا المصطلح عينه مشتق في اللاتينية القروسطوية، من Superus التي تعني "الأعلى".
7 – (م.ن)، ص (43).
8 – (م.ن)، (ص.ن).
9 – نقد العقل الأخلاقي، (م.م)، ص (167).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

من ملوك بني العباس على مناقب جميعٍ من وَلَدَ بنو مروان وأبوسفيان" [1]. ومع ذلك يرى أبوعثمان أن بني العباس موصوفون بالعدل في سياسة الرعية، واستنجاز الوعد، والاعتدال، والحكم بالكتاب والسنة، "نصبوا لأهل الخلاف والمعصية حتى صفا الدين"، ونجحوا في نشر الأمن، وحفظ البيْضة، وإرْخاص الأسعار، وتحقيق الخصب والرغد [2]. واللافت للنظر أن الجاحظ سعى في كثير من رسائله إلى تحقيق التعايش والتسامح بين الشعوب التي شكلت مزيجا إثنيا أغنى بنية المجتمع العباسي، من عرب، وفرس، وأتراك، وسودان، وموالٍ..

7. الأخلاقيــات:

الأخلاقيات في اللغة مصدر صناعي من الأخلاق. ورغم وحدة مصدرهما المفهومي، تنصرف الأخلاقيات عند الإطلاق، إلى مدونة من الواجبات التي يتعين على أفراد مجموعة مهنية أو وظيفية التقيد بها، والالتزام بضوابطها الأساسية، حفاظا على القيم السلوكية المثالية، وتحصينا لها من أي اختلالات أو مخالفات تقصيرية.. ويعود مفهوم الأخلاقيات Déontologie أو علم الواجبات – حسب الاشتقاق اليوناني – إلى الفيلسوف الإنجليزي " جيريمي بينثام " (Jeremy Bentham) (1748 – 1832) الذي عرّفه بأنه حمْلُ الحكم – سلبا وإيجابا – على أي سلوك أخلاقي، على مقتضى الواجبات المُلزِمة. وهو فرع من علم الأخلاق العملية (Applied ethics)، في الاجتماع البشري.

ما يميز الفلسفة الأخلاقية عند الجاحظ، في هذا الباب، أنها لم تبْنِ الأخلاق العملية على الخطاب الشرعي، كما نلحظ في كتب الفقهاء وأهل العرفان؛ وإنما على مبادئ عقلانية تضمنت في الوقت نفسه تصورا سوسيولوجيا، ونفسيا، وأنثروبولوجيا ثقافيا، لقواعد السلوك العملي، وقراءة لأخلاق العصر في سياقاتها التاريخية والسياسية. وقد رأينا كيف ربط الجاحظ الخُلُق بمنطق العادة، والذاكرة، والزمن؛ وكيف ربط الواجب بفكرة الحرية والسببية الطبيعية، مما جعل منهجه الاعتزالي مرتكزا يصوغ في ضوئه نسقه الأخلاقي. ومعلوم أن منهج المعتزلة في نظرية الأخلاق، يؤطِّره – كما لاحظ ذلك جورج حوراني – المنهج الفلسفي الصرف، بمنأى عن مرجعية الوحي [3]. ويبدو أن الجاحظ، بإعلانه الانتماء إلى الخطاب الفلسفي، كان يجتهد في أن يظل على مسافة من التجرد وتعليق الحكم على موضوعه، خاصة وأن الفئة المناوئة للنظر العقلي، كان جهابذتُها يناصبون الفلاسفة العداء " ذبًّا عن كراسيّهم المزوّرة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين" [4]؛ على حد قول أبي يعقوب الكندي (252 هـ) معاصر الجاحظ.

---

[1] – الفصول المختارة من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حمزة بن الحسن الأصفهاني، تح. ديانا موسى رُحَيِّل، أروقة للدراسات والنشر، ط (1)، 2013، عمان، الأردن، ص (140 – 141). والأجناد الشامية خمسة هي: دمشق، وحمص، وقنّسرين، وفلسطين، والأردن.

[2] – (م.ن)، ص (163 – 164).

[3] - Reason and tradition in Islamic ethics, George F.Hourani, Cambridge University Press, 1985, New York, p (19).

[4] – كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تح. د. أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، ط (1)، 1948، القاهرة، مصر، ص (82).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كان منحى المعتزلة في التنظير لفلسفة الأخلاق، تأسيسَ الأحكام الأخلاقية على مبادئ عقلانية، وإثارةَ نقاش علمي حولها يتجاوز قيود "الذاتية الإيمانية" (Theistic subjectivism)[1]. فالقيم الأخلاقية نظير الخير والشر، أو خيريّةِ العدل وشرّيّةِ الجور.. لها وجود موضوعي مستقل مادامت تُعرف بالعقل[2]. إنها كونيّة سابقة على النقل، يعتدّ بها المؤمن وغير المؤمن. بل إن أبا حامد الغزالي (505 هـ) نفسه أضاف معيار "نسبية" القيم، بصورة مستقلة عن أحكام العقل والفطرة. فكوْنُ "الكذب قبيحا" مردُّهُ في نظره إلى "ما أَلِفَهُ الإنسان من العادات والأخلاق والاستصلاحات" [3]؛ وذلك المألوف نسبيّ متغيّر، مع أنه لا يبرأ في جميع الأحوال، من نسبية أحكام العقل الكسْبيّة التي عليها مدار التعاقد الأخلاقي. ولذلك، فرغم سعي الجاحظ إلى تقريب الحكمة من الشريعة، في نظريته الأخلاقية، فإنه ظل يشدِّد على أن العقل قادر على بناء نسق القيم الأخلاقية، وتشكيل وعيٍ ذهنيّ مستقل عن أي محتوى ثيولوجيّ؛ أو ما يسميه "روبير برونشفيك" (R.Brunschvig) بالأخلاق القبْليَّة [4].

صوَّر الجاحظ الوسط الاجتماعي الطبقيّ أحسن تصوير معتمدا على الملاحظة، والرواية. ولعل ما يشدّ الانتباه كثرةُ الصناعات والحرف بالبصرة؛ مع أثر واضح للبيئة والإثنيات [5]. ورغم انخراط الجاحظ في "معترك الحياة الأرستقراطية (..) فسرعان ما عاد أدراجه إلى مسقط رأسه، وقرر أن يختارها مستقرا" [6]. وتحوي مؤلفاته معجما حِرَفِيًّا ثرًّا لألفاظ الصناعات، والأدوات، والعوائد، والمواقع الجغرافية. فتحدث عن الصرافين، والسمّاكين، والمستأجرين، والزُّرّاع، وموظفي الدواوين، والقيان، والمغنين، والوكلاء، والمعلمين، والكتّاب، والقوّاد، والتجار، والكنّاسين، والقُصَّاص، والحاكة، والصاغة، والمترجمين.. ومن رسائل الجاحظ التي سلِمت من الحُتُوف، تلك التي عالج فيها أخلاقيات المِهَن، كـ"التبصر بالتجارة"، و"ذمّ أخلاق الكتّاب"، و"صناعة القوّاد"، و"رسالة المعلمين"، و"مدح التجار"، و"الوكلاء"، وأخلاقيات الترجمة التي عرض لها في "الحيوان" [7]. فالنُّظُم والمعاملات تنشئ الواجب الأخلاقيّ وتؤثر فيه، من أدنى حرفة إلى أعلاها. يقول الجاحظ: "وأما الصناعات فقد تَقْصُرُ بعضَ الناس على أن يصير حائكا، وتقصر بعضهم على أن يكون صيرفيا، فهي وإن قصرتْهُ على الحياكة، فلم تقصره على خُلْفِ المواعيد، وعلى إبدال الغُزول؛ وعلى تشقيق العمل دون الإحكام والصدق وأداء الأمانة؛ ولم تقصر الصيرفيّ على التطفيف في الوزن والتغليط في الحساب؛ وعلى دسّ المُمَوَّهِ" [8]. فانتقاضُ الطباعِ عنده مفسدة للشرط الأخلاقي في الاجتماع الإنساني. وفي "كتاب المعلمين" [9]، لم ينسلخ فكر الجاحظ عن التمثُّلات السلبية التي كانت

---

[1] - An overview of knowledge – value relationship in Mu'tazilite ethical theory, Fethi kerim kazanç, in : Journal of Religious Inquiries, ULUM, 1/1, (july 2018), p (106).

[2] – (م.ن)، ص (107).

[3] – محك النظر، أبوحامد الغزالي، دار المنهاج، ط (1)، 2016، بيروت، لبنان، ص (128).

[4] - Mu'Tazilisme et optimum (Al – aslah الأصلَح), R.Brunschvig, in : Studia Islamica, N° 39, (1974), Maisonneuve et Larose, Paris, France, p (5).

[5] – صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، د. هاني العمد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط (1)، 1990، بغداد، العراق، ص (158).

[6] – (م.ن)، ص (159).

[7] – الحيوان، (م.م)، ج (1)، ص (86) وما يليها.

[8] – (م.ن)، ص (141 – 142).

[9] – كتاب المعلمين حظي بترجمات إلى الإنجليزية على يد "هرشفيلد" (H.Hirschfeld) (1922)؛ وإلى الألمانية على يد "ريشر" (O.Rescher) (1931)؛ وإلى الفرنسية بقلم "بيلا" (Ch.Pellat) (1953).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لصيقة بهذه الشريحة في زمنه، وإنْ تراجع عنها في "البيان والتبيين" [1]. فبعد حديث عن مناهج التدريس، و شدَّة الحاجة إلى المعلم والمؤدب، استطرد في تقويم تلك المناهج [2]، وشدَّد النَّكير على بعض السلوكات الصفيقة المنافية لأخلاقيات المهنة، مع ثناء خاص على الطبقة الأولى من المعلمين كعبد الله بن المقفع.. وحثَّ على وجوب انتقاء الصديق، وإيلاء المتعلمين ما هم حقيقون به من العناية والفضل لأنهم ركيزة الإصلاح في المجتمع[3]. وفي "كتاب التبصر بالتجارة" أبدى اهتماما بتثْمير المال (أي استثماره)، والتكسب بالتجارة؛ كما تطرَّق للربح في البيع، وبهْرجة العملات، ومعرفة أنواع الجواهر والحجارة الكريمة، والطِّيب والعطور والأثواب، والبضائع المستوردة.. ورأى أن من الأخلاقيات جوْدة إعمال الحواس في المدركات دون احتيال، والرأفة بالمساكين والمعوزين[4]. وأما الفقهاء الذين هم "حَفَظَةُ البيضة" [5]؛ فمنهم فئة "المتفقهين" الذين ينحرفون عن المقاصد، فيزينون للناس إتيان المذموم من الأخلاق، وهؤلاء لامناص من تقويم مُنْآدِهِم؛ بقول الجاحظ: "والمتفقِّهون يتأوَّلون في الأيْمان السلطانية ما يُلحِقُ بها عند السلطان التهمة، ويُلزِمهم الظِّنَّةَ، سيَّما في الأمور التي في الإقرار بها إباحةُ الدم والمال وهتْك السِّتْر. ولا حسْمَ لهذا الداء إلا باطِّراح الفُضول وسلامة اللسان من أن يَلِغَ في الأعراض ويستَسِرَّ بالعضيهةِ والبُهْتِ" [6].

على أن الثيمة المهيمنة على المتن الجاحظيّ هي "حفظ الأسرار". ولها أصل في الأخلاق الأرسطية، وهي رأسُ علم الأخلاق العملي عند جمهور الفلاسفة. والجاحظ يَفْتَأُ يرددها في كتبه ورسائله طُرًّا حتى لا يكاد يخلو منها كتاب، بل خصها برسالة سماها "كتمان السر وحفظ اللسان". وعنده أن "إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه من العدو والصديق"[7]. وعمد إلى تشريح سيكولوجيةِ إفشاء الأسرار مشيرا إلى صعوبة "ضبط اللسان"، و"حياطة السر"[8] أو ما يسميه "كرب الكتمان"[9]؛ لأن الإنسان مجبول على التخابر، وحجب رقابة الوعي عما يتناقله من الأخبار.

وحيث أن "مِن طبع الإنسان محبةُ الإخبار والاستخبار"[10]؛ وأن ما استقر في السجية يعزُّ تبديله إذا ضعف سلطان العقل ورقابته؛ وحيث أنه "لاشيء أصعب من مكايَدة الطبائع، ومغالبة الأهواء"، فالأسرار تتداعى لاشعوريًّا، ويتحرر الصدر واللسان من

---

[1] – أقرّ الجاحظ للمعلمين، في البيان والتبيين، بفضيلة العلم قائلا: "وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء"؛ وكان في الرسالة قد رفع عقيرته بذمهم والتنقيص منهم. انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج(1)، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط (7)، 1998، القاهرة، مصر، ص (250 – 252).

[2] – فيما يخص مناهج العصر حسب الجاحظ، يمكن الرجوع إلى:
- Ideas, Images and methods of Portrayal/Insights into classical Arabic literature and Islam,Ed. Sebastian Günther, Brill, 2005, Leiden, pp (117 – 120).

[3] – انظر: شذرات من كتاب المعلمين، تح. د. حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، عدد خاص عن الجاحظ، مج (7)، ع (4)، منشورات وزارة الثقافة والفنون، 1978، بغداد، العراق، ص (149 – 158).

[4] – كتاب التبصر بالتجارة، الجاحظ، تح. حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، ط (3)، 1994، القاهرة، مصر، ص (37).

[5] – زهر الآداب، (م.م)، نقلا عن "أردشير"، ص (500).

[6] – مجموع رسائل الجاحظ، (م.م)، ص (217 – 218).

[7] – (م.ن)، ص (142).

[8] – (م.ن)، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص (199).

[9] – (م.ن)، ص (203).

[10] – (م.ن)، ص (201).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

شحنة الكتم والحفظ. أما إذا قويتْ رقابةُ العقل على الأهواء، انْكتمَ السرُّ، واسترسلَ حِفْظُهُ في الذاكرة، فخُمِدتْ عاقبته. وفي تقدير الجاحظ أن الأسرار عادة ما تكون في أمور الدين، والسياسة، والاجتماع [1]. ومن المهن التي لا تقل فيها تداعيات إفشاء الأسرار عن محظورات السياسة، مهنة الطب التي تستوجب التزام واجب التكتم الأخلاقي؛ يقول الجاحظ: "وأول الشروط التي وُضِعتْ في أعناق الأطباء سَتْرُ ما يطَّلعون عليه في أبدان المرضى، وكذلك حُكْمُ من غسَّل الموتى" [2]. فأساس المسؤولية في أخلاقيات المهن منطق العقل، وهو الباعث على الالتزام بالأصول والواجبات عند الجاحظ، بل إتقان العمل والتحرّز من الانحراف بتجويد المهارات والقدرات. وقد أبدى الجاحظ إعجابه – في مواضع كثيرة – بمهنيّة الحِرَفيّين وإتقانهِمُ الصنعةَ [3]. كما أثنى على روح التكافل والتكتل التنظيمي بين صغار المهنيّين، لما تنطوي عليه من الوعي بوحدة المصلحة، وتطوير الأداء والخدمة.

[1] – (م.ن)، ص (211)؛ وقد عبر الجاحظ عن ذلك بسرّ الأديان، وأسرار الملوك، وعداوات الخِلاّن.

[2] – البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان، (م.م)، ص (36).

[3] – نظيرَ إعجابه بنجارٍ صنع له بابا خشبيا؛ فأحسن التقدير والمسامَتَةَ عند تركيبه؛ انظر: الجاحظ والحاضرة العباسية، د. وديعة طه النجم، مطبعة الإرشاد، 1965، بغداد، العراق، ص (44).

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع العربية:

- أصالة الجاحظ، شارل بيلا، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.
- آثار ابن المقفع، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1989، بيروت، لبنان.
- البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان، الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط (1)، 1990، بيروت، لبنان.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط (7)، 1998، القاهرة، مصر.
- تاريخ طبرستان، بهاء الدين بن إسفنديار، ترجمة أحمد محمد نادي، المجلس الأعلى للثقافة، ط (1)، 2002، القاهرة، مصر.
- التعريفات، علي الجرجاني، تح. محمد صديق المنشاوي، (د.ت)، القاهرة، مصر.
- الجاحظ والحاضرة العباسية، د. وديعة طه النجم، مطبعة الإرشاد، 1965، بغداد، العراق.
- جمهرة اللغة، أبو بكر بن دريد، تح. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، 1987، بيروت، لبنان.
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1997، بيروت، لبنان.
- الحيوان، الجاحظ، ، تح. عبد السلام محمد هارون، مطبعة بابي الحلبي، ط (2)، 1966، القاهرة، مصر.
- رأي أبي عثمان في معاوية والأمويين، عزت العطار الحسيْني، مكتبة الخانجي، 1946، القاهرة، مصر.
- رسائل ابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري، تح وترجمة د. يوسف شخت، ود. ماكس مايرهوف، مطبعة بول باربيه، 1937، القاهرة، مصر.
- رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم الحُصْري القيرواني، تح. د.علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، 1953، القاهرة، مصر.
- شذرات من كتاب المعلمين، تح. د. حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، عدد خاص عن الجاحظ، مج (7)، ع (4)، منشورات وزارة الثقافة والفنون، 1978، بغداد، العراق.
- شرح المواقف، علي الجرجاني، تح. محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، ط (1)، 1998، بيروت، لبنان.
- صوان الحكمة وثلاث رسائل، أبو سليمان المنطقي السجستاني، تح. د. عبد الرحمن بدوي، ط (1)، 1974، طهران.
- صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، د. هاني العمد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط (1)، 1990، بغداد، العراق.
- طبقات الأمم، أبو القاسم بن صاعد الأندلسي، تح. الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، 1912، بيروت لبنان.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- العقل الأخلاقي العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط (1)، 2001، بيروت، لبنان.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، تح. عبد ارحمن خليفة، مطبعة صبيح، ط (1)، 1347 هـ ، القاهرة، مصر.
- الفصول المختارة من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حمزة بن الحسن الأصفهاني، تح. ديانا موسى رُحَيِّل، أروقة للدراسات والنشر، ط (1)، 2013، عمان، الأردن.
- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، القاضي عبد الجبار، أبو الحكم البلخي، الحاكم الجشمي، تح. فؤاد سيد، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، دار الفارابي، ط (1)، 2017، بيروت، لبنان.
- الفكر الأخلاقي المعاصر، جاكلين روس، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات، ط (1)، 2001، بيروت، لبنان.
- الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، د. أحمد محمود صبحي، دار المعارف، ط (2)، 1983، القاهرة، مصر.
- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط (3)، 1997، القاهرة، مصر.
- كتاب التاج في أخلاق الملوك، الجاحظ، تح. أحمد زكي باشا، المطبعة الوطنية، 1914، القاهرة مصر.
- كتاب التبصر بالتجارة، الجاحظ، تح. حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، ط (3)، 1994، القاهرة، مصر.
- كتاب تنسر، ترجمة يحيى الخشاب، جمعية النشر الأزهرية، 1954، القاهرة، مصر.
- كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، الجاحظ، دار الندوة الإسلامية، 1988، بيروت، لبنان.
- كتاب التربيع والتدوير، الجاحظ، تح. شارل بلات، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1955، دمشق، سوريا.
- كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تح. د. أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، ط (1)، 1948، القاهرة، مصر.
- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، تح. علي دحروج، مكتبة لبنان، ط (1)، 1996، بيروت، لبنان.
- ما لم يُنشر من تراث الجاحظ، تح. د. حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1979، بغداد، العراق.
- مجموع رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح. د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، 1983، بيروت، لبنان.
- محك النظر، أبوحامد الغزالي، دار المنهاج، ط (1)، 2016، بيروت، لبنان.
- مختار الحكم ومحاسن الكلم لأبي الوفاء المبشر بن فاتك، تح د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية، ط (2)، 1980، بيروت، لبنان.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الأسد آبادي تح. مصطفى السقا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط (1)، 1958، القاهرة، مصر.
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الأسد آبادي، تح. إبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط (1)، 1958، القاهرة، مصر.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج (1)، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1997، الرياض، السعودية.
- مقامات بديع الزمان الهمذاني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط (3)، 2005، بيروت، لبنان.
- المقدمة، ابن خلدون، تح. عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط (1)، 2004، دمشق، سوريا.
- الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه، تح. أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951، القاهرة، مصر.

المراجع الأجنبية:

- Abdollah Ibn – al – Moqaffa', Abbas Iqbal, in : Orientalischer Zeitschriftenverlag Iranschähr, G.M.B.H, Grunewald Friedrichsruherstr, 37, 1926, Berlin, Allemagne.
- Al-Jahiz : A Muslim Humanist for our time, Ed. Arnim Heinemann, John L. Meloy, Tarif Khalidi, Manfred Kropp, Orient-Institut Beirut, 119, 2009, Ergon Verlag Würzburg in Kommission, Beirut, Lebanon.
- Annalium, Libri X, Hamzae Isphanensis, Ed. I.M.Gottwald, Textus arabicus, MDCCCXLIV, Lipsiae, Allemagne.
- An overview of knowledge – value relationship in Mu'tazilite ethical theory, Fethi kerim kazanç, in : Journal of Religious Inquiries, ULUM, 1/1, (july 2018).
- Das kitab al-Adab al-Kabir des Ibn al-Muqaffa' als Ausdruck griechischer ethik, Islamischer ideologie und iranisch – sassanidischer , Hofetikette, in : Oriens, 43, 2015, Brill, Leiden, Netherlands.
- De philosophia peripatetica, E. Renan, Ed. A. Durand, 1852, Paris, France.
- Elementa grammaticae arabica, A. Durand & L. Cheikho, Beryti, Topographia Patrum Societatis Jesu, 1896.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- From the Greeks to the Arabs and beyond, Hans Daiber, Brill, 2022, Leiden, Netherlands.
- Frühe Mu'Tazilitische häresiographie, Zwei werke des Nasi' al – Akbar, Josef Van Ess, Orient – Institut, 2003, Beirut, Lebanon.
- Geschichte de Christlischen Arabischen literatur, Georg Graf, Zweiter Band, Città del Vaticano, Biblioteca apostolica Vaticana, 1947, Roma, Italia.
- Khwadaynamag – The middle persian book of kings, Jaako hämeen – Anttila, 2018, Brill, Leiden, Netherlands.
- L'affinamento dei caratteri (Tahdib al- akhlaq), trad. Ida Zilio – Grandi, Gruppo di Ricerca Cristiana, 2019, Bologna, Italia.
- Le milieu Basrien et la formation de Gahiz, Charles Pellat, Librairie Maisonneuve, 1953, Paris, France.
- Les penseurs de la Grèce, Théodore Gomperz, Trad. Aug. Reymond, 2è éd , Librairie Payot, 1910, Paris, France.
- L'esthétique de l'existence dans le dernier Foucault, Fabien Nègre, in : Raison présente, n° 118, 1996, Paris, France.
- Pensée grecque, culture arabe, Dimitri Gutas, Trad. Abdesselam Cheddadi, Ed. Aubier, 2005, Paris, France.
- The Abbasid house of wisdom, Ekmeleddin Ihsanoglu, Ed. Routledge, 2003, London, United Kingdom.
- The Arabic version of the Nicomachean Ethics, Ed. Anna A. Akasoy & Alexander Fidora, 2005, Brill, Leiden, Netherlands.
- The history of kings of the Persians' in three Arabic chronicles, Trans. Robert G. Hoyland, Liverpool University Press, 2018, United Kingdom.
- The philosophical life in tenth century Baghdad : The contribution of Yahya Ibn 'Adi' s Kitab Tahdhib Al- Akhlaq, Sidney Griffith, in : The history of Christian – Muslim relations, Vol. 1, Ed. David Thomas, Brill, 2003, Leiden, Netherlands.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- Reason and tradition in Islamic ethics, George F.Hourani, Cambridge University Press, 1985, New York, USA.
- Yahya Ben ‘Adi, un philosophe arabe chrétien du Xè siècle, Augustin Périer, Thèse de Doctorat ès – lettres, Faculté de Paris, Ed. Paul Geuthner, 1920, Paris, France.
- Yahya Ibn-‘Adi : The reformation of morals, trans. Sidney H.Griffith, Brigham Young University Press, 2002, USA.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/